كونترول

◆ خالد صالح

ترجمة : هدى برواري

اشياء كثيرة كانت تتغير من حولنا وتلبس كل يوم حلة جديدة. في زقاقنا، وفي حينا ومدينتنا، البلد قبل 30عاما لم يكن كما هو اليوم وتغير على نحو كبير، لكن الدنيا لو انقلبت رأساً على عقب، فان شيئاً ظاهراً وجلياً في بيتنا لم يكن يطاله التغيير، انها صورة جدي المعلقة على الحائط.

تغير ديكور منزلنا عدة مرات، كان مبنياً من اللبن والطين فاصبح من الاسمنت، كان طابقاً واحداً فاصبح طابقين... لكن صورة جدي المصفرة ذات الاطار .....(المندثر) (المتآكل) بعد كل حملة تغيير كان ابي يختار لها موضعاً مميزاً في البيت. كان يدق مسماراً على الحائط ويزين الغرفة بذلك المنظر القبيح، الذي لو طالعت فيه ملامح وجهه وعيونه العابسة لظننت انه تعرض للدغة عقرب، كان وجهه مليئاً بالجروح والخدوش، واضح جروح المعارك بادية عليها، كأن القطط قد تعاركت على وجهه.

شواربه عندما اراها، ابقى محتارا كيف البلدية لم تنتزعها لتصنع منها مكانس لتنظيف شوارع وازقة المدينة، حواجبه الكثة تحجب الرؤيا عن عينيه في كل اتجاه، فلا يكاد يرى الا موضع حذائه، عيناه لا تبصران شيئاً من بعيد، يشد غطائين على رأسه، يمنعان النور والشمس عنه، انا على يقين انه لم يكن ينتزعهما الا عندما كان يستحم، ليتمتع حينها رأسه بشيء من النور، وكان ذلك لا يحدث الا في الاعياد، .....(((بندقيته جاهزة دائماً))).

ذات يوم كنت متكئاً قبالة صورته انظر بتمعن الى ملامحه، وافكر بعمق : لماذا أبي الى هذا الحد مبتهج بأبيه، ماهو سر حمايته وحفظه لتلك الصورة الصدئة؟! عيناي وقعتا على عينيه الجاحظتين، كنت اريده ان يضحك قليلاً، ان يبتسم .. ولكن ما هذا العبث!.. من سيرى أسنانه؟! .. انا لا اصدق ان هنالك شخصاً في المنزل يعرف بدقة كم سناً ما زالت في فمه، وكم منها وقعت، كم أنظر اليه وأحدق فيه، ولكن دون جواب.

قلت في نفسي لاشيء يؤثر على هذا الانسان، لأستنطقه بالكونترول واجبره على الحديث، أضحكه وأبكيه وأدفعه للنوم و.....

(وجهت اليه الكنترول، وقعت عيناه علي وبكل صلافة اجابني :)

– يا ولد ماهذا ؟

– جدي .. هذا شيء يدعى كونترول !

(تحدث بسخرية:)

– ماهو الكونترول ؟!

– جدي هذا جهاز يستطيع ان يسيطر على كل حركاتك ونشاطاتك، يضحكك، يبكيك ، يسكتك .....!

– كيف ذلك ؟

–انظر اليه، انا الآن سأنيمك.

(سلط عليه عدسة الكنترول:)

– ايها الولد التعيس، حبوب الفاليوم لم تؤثر علي ولم تنمني، تريد بهذا الكنترول ان تدفعني للنوم ؟

– اذن انتظر سافعل بك ما يبكيك.

– ايها الولد العاق، هل الرجال يبكون؟! لكن لو كنت قد ربيت اباك بشكل جيد، لكان بدوره علمك الأدب، ولما تجرأت على قول هذا الكلام وقللت أدبك.

– جدي... لأنني لم اتمكن منك، سأوقظ القمل الذي في رأسك للرقص.

(قملةٌ على ياقته نادت بصوت عالي:)

– عمي .. عن اي قمل في رأسه تتحدث! بحقك لايوجد تحت غطاء رأسه اوكسجين كافي كي تعيش قملة واحدة .. وانا لا اعرف كيف نجوت من تلك النار وسقطت على ياقته.

(بصوت خافت:)

– اسكت !! ربما يسمعك فيقتلك .

– يسمع ماذا ! بحقك هو اصم فأذناه موجودتان فقط من اجلك وللوقوف بوجهك ولكنه في الحقيقة لا يسمع شيئاً.

(نظر الي جدي، ولمرات ظل يستخف بي).

– ها ايها الفتى .. ماذا فعل كونترولك ؟

(أثيرت اعصابي، فاجبته:)

– انا لن اتركك في حالك، سوف اجعلك في حركة دائمة تتحول من حال، انظر سأضحكك .

(سلطت باتجاهه الكونترول...)

جدي بدأ يضحك ويضحك وازرق لونه حتى سقط على الارض. الجيران كلهم جاؤوا على صوت ضحكته وتجمعوا حوله، كل من التقت نظرته به فغر فمه مدهوشاً بما رأى.

هذا هو الجد !!

– نعم الجد .

احسست بغبطة كبيرة وبطعم النجاح .

– ها ياجدي.. هل رأيت ما جرى لك، وكيف تحكم الكونترول بصلافتك وشدتك، وماذا فعل بك؟!

(اخذ نفساً عميقاً ونظر الي وقال بكل هدوء ورقة:)

– بني . الكنترول لم يضحكني، ولا احد يستطيع اثارة ضحكتي .. لكني مبتهج ومحظوظ لأني لم اقع مثلكم تحت رحمة الكونترول ليضحكني ويبكيني ويقودني وينطقني وينيمني ويرفعني وينزلني وكيفما شاء يتلاعب بي.

(الكونترول دخل متحدثاً:)

– جدي ... انا افكر بدلا عنه.

(بفرح وبصوت عالي:)

– هل رأيت .!

– جدي، قل ماشئت، لكنني ارغمتك على الضحك، وجعلتك مثار سخرية.

(جدي استشاط غضباً، ووجه بندقيته نحوي، فوجهت الكونترول نحوه فأدارت فوهة بندقيته نحو الارض فاخذته الدهشة)

فتحت عيناي . كانت هناك من حولي انواع مختلفة من الكونترولات، ووجهه المتصلد متسمراً قبالتي على الحائط، وعقارب الساعة بجواره تتسابق لحظة بلحظة.